

القصة بين  
الإيمان والتوزيع  
في القرآن الكريم

obeikandi.com

## أ- توزيع القصة في القرآن الكريم: منهجه وأسلوبه:

يرد القصص القرآني في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها هي التي تحدد مسار القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدي بها، تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه، وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب<sup>(١)</sup>.

ولذلك يلاحظ الدارسون للقصة القرآنية أنه لا يلتزم فيها بالسردي القصصي، ولكن يلتزم فيها بالوصول إلى الغاية من القصة، ووفقاً لذلك الالتزام نرى من القصص القرآنية ما تقدم كاملة الأحداث والمواقف في معرض واحد - كما في قصة يوسف - ومنها ما تقدم في حلقات، يخصص بكل حلقة منها معرض يتطلب هذه الحلقة من القصة فحسب. ولا مانع في أثناء ذلك من تكرار موقف مشترك بين حلقتين..

ولا شك في أن هذا المنهج من أبرز الخصائص الفنية في القصة القرآنية التي يعجز المخلوق عن مجارات البيان القرآني فيها، لما يجوج إلى استجماع القوي الفنية جميعاً في وقت واحد، حتى لا يسقط موقف في معرض أو يزداد موقف، وحتى يتمكن من إدراك أبعاد المعرض وحصر متطلباته من الأحداث، والقدرة على حشد تلك الأحداث واستهلاكها من القصة بحيث لا يهتز المسار الفني فيها، وبحيث لا يتناقض حدث في حلقة سابقة مع حدث في حلقة لاحقة<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا نلاحظ بعض الدارسين أن هنالك تكرار في القصص القرآني، لأن القصة

الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتي ؛ ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق، وإنه حينما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه ينفي حقيقة التكرار<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من أن هذه الخصيصة إحدى أسرار الإعجاز القرآني، إلا أن هناك من يزعم أن في القصة القرآنية خلقاً للحوادث أو تصرفاً فيها، يقصد به إلى مجرد الفن - بمعني التزييق الذي يتقيد بواقع، وأن الشخصية في القصة القرآنية ليست حقيقية وإنما هي شخصية فنية اخترعها البيان القصصي، ومن ثم فهي في تلك الحلقة غيرها في الحلقة الأخرى وإن اتفقت معها في التسمية، ومن ثم فالأحداث التي تدور في تلك الحلقة لا تمت بصلة تاريخية ولا واقعية للأحداث الماثلة لها التي تدور في الحلقة الأخرى..

والحقيقة أن عرض الشخصية الواحدة في أكثر من معرض ليس تكراراً ولا تناقضاً، وإنما هو - الاستجابة للأحداث والمواقف والغاية من القصة، لأن الشخصية - كما قررنا من قبل في معرض الحديث عن الشخصية في القصة القرآنية - ليست مقصودة لذاتها، ولأن عرض الحديث كذلك - ليس مقصوداً لذاته، وإلا لجمعت كل أحداثها، ورتبت ترتيباً زمنياً أو فنياً، ثم ذكرت مع شخصيتها في قصة واحدة.. وإلا أصبح لكل قصة معرض واحد تقدم فيه كاملة الأحداث والمشاهد، تطلبها المعرض كاملة أو لم تطلبها.. ولم يسرّ القرآن هذا المسار في قصصه، ولكنه يعرض كاملة أو لم تطلبها.. ولم يسرّ القرآن هذا المسار في قصصه، ولكنه يعرض للشخصية مع حدث معين من أحداثها فيمزج بينهما، ثم يقدم الشخص متفاعلاً بذلك الحدث لا غير، لتري العظة والعبرة من خلال هذا النموذج مع ذلك الحدث، ثم تنتهي المشاهد المصورة، وتطوي القصة عند ذلك، وتنتقل إلى موقف آخر، فإذا عرض بعد ذلك ما يستدعي هذه الشخصية ذاتها مع حدث آخر رأيت حلقة أخرى - أو قصة أخرى - ذات مضمون جديد. وإن تراءت تكراراً لما سبق في سورة أخرى..

فشبهة التكرار - كما نرى - ما جاءت إلا من تكرار الشخصية، وعدم الوعي بقيمتها في القصة القرآنية<sup>(١)</sup>.

ولقد حظي هذا الموضوع بجهود البلاغيين والنقاد قديماً وحديثاً، واستغرق قدراً كبيراً من جهدهم، وما من مؤلف في البلاغة والنقد قديماً وحديثاً إلا تناول هذه الظاهرة في القصة القرآنية، ولقد انقسم الباحثون إلى فريقين الأول يرى أن التكرار منهج ثابت من مناهج القرآن، ولا يوجد فقط في القصة القرآنية وأبناء الرسل، وأحاديث الأقوام الغابرين؛ بل يوجد في كل ما تناوله كتاب الله العظيم قياماً بالرسالة التي أسندها الله إليه وأنزل آياته من أجلها، أما الفريق الآخر فينفي التكرار تماماً، وفيما يلي نوضح أهم آراء هذين الفريقين:

يقول صاحب البرهان: "لقد غلط من أنكر كونه (أي التكرار) من أساليب الفصاحة، ظناً أنه لا فائدة له، وليس كذلك بل هو من محاسنها، لا سيما إذا تعلق بعضه ببعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها، إذا أبهمت بشيء إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه، كررته توكيداً، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسّم عليه أو الاجتهاد في الدعاء عليه، حيث تقصد الدعاء؛ وإنما نزل القرآن بلسانهم، وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة. وعلي ذلك يحتمل ما ورد من تكرار المواعظ والوعود والوعيد، لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة، وكلها داعية إلى الشهوات، ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع، وقال تعالى: "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ"<sup>(٢)</sup> وبذلك تكون الفائدة العظمى من التكرار هي التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر، وقد أخبر الله سبحانه بالسبب الذي لأجله كرر الأقاويص والأخبار في القرآن فقال: "وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" (القصص: ٥١)، وقال: "وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا" (طه: ١١٣)، وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معني، خشية تناسي الأول، لطول العهد به ثم ينتقل "صاحب البرهان" إلى تكرار القصص في القرآن

الكريم، كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى وغيره من الأنبياء، ويقول إنما هي تكررت لفائدة خلّت عنه في الموضوع الآخر وهي أمور:

أحدهما: أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً، ألا ترى أنه ذكر الحية<sup>(٣)</sup> في عصا موسى عليه السلام، وذكرها في موضع آخر ثعباناً<sup>(٤)</sup>، ففائدته أن ليس كل حية ثعباناً، وهذه عادة البلغاء، أن يكرر أحدهم، في آخر خطبته أو قصيدته كلمة، لصفة زائدة..

الثانية: أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين، وكان أكثر من آمن به من المهاجرين، فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجمع فيها فيكون فيه إفادة القوم، وزيادة تأكيد وتبصرة، لآخرين وهم الحاضرون.

الثالثة: تسليته لقلب النبي - صلي الله عليه وسلم - مما اتفق للأنبياء مثله مع أمهم . قال تعالى: " وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ " (سورة هود: ١٢٠).

الرابعة: أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة.

الخامسة: أن الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام فلهذا كررت القصص دون الأحكام.

السادسة: أن الله تعالى أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد صلي الله عليه وسلم، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم، بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاءوا، بأي عبارة عبّروا..

السابعة: أنه لما سخر العرب بالقرآن قال: " فأتوا بسورة من مثله " (البقرة: ٢٣) توقال في موضع آخر: " فأتوا بعشر سور " (هود: ١٣)، فلو ذكر قصة آدم مثلاً في

موضع واحد واكتفي بها لقال العربي بما قال الله تعالى: " فأتوا بسورة من مثله " إيتونا أنتم بسورة من مثله "، فأنزلها سبحانه في تعداد السور، دفعاً لحجتهم من كل وجه..

الثامنة: أن القصة الواحدة من هذه القصص، كقصة موسى مع فرعون - وإن ظن أنها لا تغاير الأخرى - فقد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ؛ فإن كل واحدة لا بد وأن تخالف نظيرتها من نوع معني زائد فيه، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها؛ فكأن الله تعالى فرّق ذكر ما دار بينهما وجعله أجزاء، ثم قسم تلك الأجزاء علي تارات التكرار لتوجد متفرقة فيها؛ ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة؛ من انفراد كل قصة منها بموضع كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة، فاجتمعت في هذه الخاصة؛ من نظم القرآن عدة معاني عجيبة:

منها: أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يُوقع في اللفظ هجئة ولا أحدث ملاماً، فباين بذلك كلام المخلوقين ...

ومنها: أنه ألبسها زيادة ونقصاناً وتقديماً وتأخيراً، ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها، فيكون شيئاً معاداً؛ فنزّهه عن ذلك بهذه التغييرات ..

ومنها: أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير فيجد البليغ - لما فيها من التغيير - ميلاً إلى سماعها، لما حُببت عليه النفوس من حبّ التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة.

ومنها: ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعني واحد؛ وقد كان المشركون في عصر النبي صلي الله عليه وسلم يعجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير أنواع النظم، وبيان وجوه التأليف، فعرّفهم الله سبحانه بأن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية، ولا يقع علي

كلامه عدد<sup>(٨)</sup>؛ لقوله تعالى: " قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا" (سورة الكهف: ١٠٩)، وكقوله: " وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (سورة لقمان ٢٧) ويرى " الخطابي": أن التكرار بلاغة . وترك التكرار في الموضع الذي يستدعيه إخلال بالبلاغة فيقول: " تكرر علي ضربين: أحدهما مذموم، وهو ما كان مستغني عنه غير مستفاد به زيادة معني لم يستفيدوه بالكلام الأول لأنه حيثئذ يكون فضلاً من القول ولغواً وليس في القرآن شيء من هذا النوع؛ والضرب الآخر: ما كان بخلاف هذه الصفة، فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة إليه فيه، بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها"<sup>(٩)</sup>.

وقد وقف " القاضي عبد الجبار" عند التكرار في القصص القرآني، وردّ طعن الطاعنين بسببه، وبين أنه من الوجوه التي تجلّت فيها براعة القرآن وظهر فيها إعجازه، كما يبيّن أن هذا التكرار كان تسليّة للرسول - صلي الله عليه وسلم - وتثبيتاً لفؤاده علي مدّي ثلاث وعشرين سنة هي مدة نزول القرآن، كما ذكر أن التكرار المعيب هو ما يكون في المواطن الواحد أما إذا تعددت مواطنه فإنه بلاغة وفصاحة . ولهذا قال تعالى: " وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ " (هود: ١٢٠) .

كما يرى " القاضي عبد الجبار " أنه قد يكون السرّ في هذا التكرار في قصص القرآن، أن يكون تسجيلاً لكلام السابقين والأحداث التي وقعت لهم، فيكون هذا التكرار مختصاً بكل حالة، فيقول في ذلك: " علي أن كثيراً مما ذكره الله تعالى في قصص الأنبياء المتقدمين، لا يمتنع أن يكون تكرر منهم في أوقات فكان ذكره بحسب تكراره، وذلك مما يدل علي عظم شأن القرآن أيضاً:<sup>(١٠)</sup>.

ويقول " مصطفى صادق الرافعي " في تعليقه علي هذه الظاهرة: " لقد خفي

هذا المعنى ( التكرار ) على بعض الملحدة وأشباههم ومن لا نفاذ لهم في أسرار العربية ومقاصد الخطاب والتأني بالسياسة البيانية إلى هذه المقاصد، فزعموا به المزاعم السخيفة وأحالوه إلى النقص والوهن، وقالوا إن هذا التكرار ضعف وضيق من قوة وسعة، وهو - أخزاهم الله - كان أروع وأبلغ وأسري عن الفصحاء من أهل اللغة والمتصرفين فيها، ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيروه لو كان عيباً<sup>(١١)</sup>

ويقول أيضاً: وفي بعض ذلك التكرار معني آخر فطن إليه بعض علمائنا ولم يكشف لهم عن سره، وأول من نبه عليه الجاحظ في كتاب ( الحيوان ) إذ قال " ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكي عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام<sup>(١٢)</sup> ."

وأما ( أبو هلال العسكري ) فقد ذكر التكرار عند حديثه عن الإطناب، ويبدو أنه قد نقل عبارة الجاحظ، حيث بين أن التكرار لا يصار إليه إلا إذا اقتضاه المقام، وأنه قد كثر في القرآن في خطاب بني إسرائيل لقلة فهمهم فيحتاجون إلى الشرح والإيضاح والتأكيد، بينما كان الخطاب للأعراب، بالإشارة والوحي لعدم حاجتهم إلى ذلك، ومثل له من القرآن وفصيح الشعر<sup>(١٣)</sup> .

وإذا كان تفسير هؤلاء الباحثين المتقدمين لبلاغة التكرار في القرآن يتسم بالتعميم، وتكاد معظمها تتفق على أن التكرار لا يصار إليه إلا إذا اقتضاه المقام: كالتأكيد والوعد والوعيد، فإن " جار الله الزمخشري " قد نهج نهجاً يقوم على التحليل النفسي والتعمق والتغلغل في كشف الأسرار النفسية والبواعث البلاغية التي بسببها كان هذا التكرار، في كلام الله عز وجل وفي القصص التي ساقها، إذ يري الزمخشري " أن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور " .. ومن ذلك قوله تعالى: " إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين " <sup>(١٤)</sup> فيقول الزمخشري: " كرّر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها هذه الآية لأن كل قصة

كتنزِيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبها، وأن تختتم بما اختتمت به، ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس<sup>(١٥)</sup>.

وهكذا في كل ما تقدم رأينا البلاغيين يتفوقون علي بلاغة ما جاء في القرآن الكريم من آياته وقصصه مكرراً في أكثر من موطن ومردداً في أكثر من موضع، وأن تكرار القصة الواحدة في القرآن الكريم وثيق الصلة بمنهجه القصصي، إذ هو يخدم غرضين في آن واحد:

#### ١- غرض فني:

ويتمثل في تجدد أسلوبها إيراداً وتصويراً، والتفنن في عرضها إيجازاً وإطناباً، والتنوع في أدائها لفظاً ومعنى ..

#### ٢- غرض نفسي:

وذلك بما له من تأثير في النفوس، لأن المكرر ينطبع في تجاوير الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها كما هو مقرر في علم النفس<sup>(١٦)</sup>.

ومن آراء الفريق الآخر الذي لا يقرّ بوجود التكرار مطلقاً في القرآن الكريم نستعرض رأي الدكتور "محمد أحمد خلف الله" الذي يذهب إلى عجز العقل الإسلامي عن أن يفهم الأسرار التي من أجلها كان التكرار. يرجع إلى أنه اعتمد المذهب التاريخي في فهم القصص القرآني، ومن هنا رأي الكثيرون اعتبار القصص القرآني من الآيات المتشابهات. يقول الطبري "المتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار فقصه باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني".

ويقول: "ولو إن العقل الإسلامي أقام فهمه للقصص القرآني علي أساس فني وأدبي لما وقف هذه الوقفة ولعرف منذ اللحظة الأولى، الذي عدّه تكراراً ليس من

التكرار في شيء لأن هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص، وأن مقاصد القرآن من مواعظ وعبر ومن إنذارات وبشارات تختلف في موطن عنها في آخر، ومن هنا كان الاختلاف. لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى اختلاف الصور الأدبية.. فقصص القرآن من قصة موسى في سورة " طه " غيره من قصة موسى في سورة " النمل "، وقصة موسى في سورة " طه " قصة مستقلة، وقصته في سورة " النمل " قصة مستقلة. ومن الوجهة الأدبية هذه قصة وتلك قصة أخرى. وعلي هذا فلا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه " (١١٠) .

وأما عن رأيه في وحدة الشخصية فيقول: " ليس من شك في أنك لا تستطيع أن تغلب الاتفاق في الشخصية علي بقية العناصر القصصية، من خلاف في المقاصد والأغراض، واختلاف في الصور والألفاظ، واختلاف في النسق والترتيب، واختلاف في فن البناء والتركيب - ومن هنا نحس أن الاختلاف القائم علي أساس الأحداث أيضاً يزول، فكون البشارة بالسلام مرة لسارة وأخري لإبراهيم عليه السلام لا يعتبر من الاختلاف لأن هذه قصة وتلك قصة، وكذلك غير هذا المثال من آيات القصص الذي يتغير فيه التعبير " (١١١) .

ويقول: " إن هذا الوجه من الرأي يبطل ذلك القول الخاطيء الذي يقول به المستشرقون من تطور الشخصية القصصية في القرآن الكريم بتطور أغراض النبي عليه السلام ودوافعه والظروف المحيطة به والمناسبات التي تدعوه إلى بعض المواقف. ذلك التطور الذي يمثلون له ما حدث في شخصية إبراهيم عليه السلام، لأن أساس هذا القول إن الوحدة القصصية تقوم علي وحدة الشخصية وهو قول باطل، يريحنا منه تقرير أن هذه الوحدة، إنما هي وحدة الغرض والعبرة لا وحدة الشخص، ومن هنا تكون هذه قصة وتلك قصة، وتكون أقاصيص متعددة لشخص واحد عن موقف واحد، لتعدد الأغراض واختلاف صور العرض باختلاف المقصد والغرض " (١١٢) .

وغني عن البيان أن المقدمة التي بنى عليها " الدكتور خلف الله " حكمه في عدم

التزام القرآن الكريم للواقع في قصصه غير صحيحة. والمقدمة تتمثل في إقراره بوجود مفارقات بين ما يكرر من أحداث القصة الواحدة، وسوف ندفع هذه الشبهة عند عرضنا لقصة موسي موزعة في إحدى عشرة سورة من سور القرآن الكريم، لنفي وجود هذه المفارقات التي لا يبررها علي افتراض وجودها ما يقتضيه العمل الفني والأدبي من تصرّف في عناصر الأحداث أو الشخصية . لأن هذا - وإن جاز في القصص الأدبي التاريخي - لا يجوز بحال في القصص القرآني والله تعالى يقول: " لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (سورة يوسف: ١١١).

إن الجمال الفني في قصص القرآن لا يعتمد علي الخلق والابتكار والخيال ولكن علي صدق الرواية، وإبداع العرض، وجمال الأداء.

أما من ناحية الوحدة القصصية فيقول " الدكتور خلف الله " باستحالة الجمع بين ما جاء من قصة إبراهيم عليه السلام مفرقاً بين سور " البقرة " و " هود " و " الأنبياء " في وحدة قصصية وكذلك قصص غيره من الأنبياء.

ولقد انطوى هذا القول علي مغالطات جسيمة لأن الوحدة القصصية، حسب ما تعارف عليه - النقاد - " هي وحدة بطل القصة أو وحدة موضوعها، ووحدة البطل هنا هي " إبراهيم " في سورة البقرة، في بداية نبوته عندما أراد أن يطمئن قلبه فسأل ربه برهاناً علي كيفية البعث، وهي " إبراهيم " أيضاً في سورة الأنبياء عندما أراد أن يضع بين أعين قومه برهاناً علي ضلالتهم في عبادة الأصنام: " فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا هُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ " ( الأنبياء: ٥٨ ) وكاد ينجح في مهمته مع قومه لولا أنهم نكسوا علي رؤسهم .. وهي " إبراهيم " أيضاً، في سورة مريم حينما رأي نفسه عاجزاً عن هداية أبيه وهو أقرب الناس إليه وأكرمهم عليه إلى الإيمان بدعوته " (٣٠) "

أما وحدة الموضوع فهي بالجملة طلب " إبراهيم " وهو يباشر دعوته أن يقتنع

هو بها بينه وبين نفسه، ثم محاولته أن يقنع بها قومه ثم عجزه عن إقناع أبيه وما تخلل ذلك من إلقائه في النار، وإقدامه علي ذبح إسماعيل ونجاته من النار ونجاة ابنه من الذبح، وهجرته إلى مكة مع زوجته هاجر و بناء الكعبة وأخيراً مشيئة الله وقدرته في الهداية والإرشاد..

هذه هي الوحدة القصصية في قصة إبراهيم ومثلها في قصص الأنبياء<sup>(١)</sup> وأما مَنْ يقول بالتعارض في قصص القرآن من المحدثين، فإنما يعني تناقضاً، في حين أن التناقض معدوم، لانعدام شروطه المتفق عليها عند علماء المنطق: وهي الاختلاف بين قضيتين في الكم والكيف والجهة، والاتفاق بينهما في وحدات ثنائية: الموضوع والمحمول والزمان والمكان والإضافة والشرط والقوة والفعل والجزء والكل<sup>(٢)</sup>.

وإذا أمعنا النظر فيما يبدو لنا من اختلاف بين سورتين أو أكثر في القصة القرآنية الواحدة علي ضوء هذه القاعدة المنطقية، فلا بد أن نهتدي إلى انعدام وحدة فأكثر من تلك الوحدات التي لا يكون التناقض إلا بتوفرها معاً. وإذا فلا تناقض.. وذلك ما أردنا توضيحه فيما يتعلق بقضية قد شغلت حيزاً في فكر المفكرين والباحثين نخلص إلى أن ما توهمه البعض من أنه تكرار لا ينقص من عظمة وإعجاز القصص القرآني كما نودّ أن نقول إن التكرار لم يقع مطلقاً في قصص القرآن الكريم، وإنما التكرار وقع على بعض الحلقات في القصة ليس فيها كلها فورود القصة الواحدة - في معظم الحالات - مكررة في مواضيع شتى لا يتناولها كلها - غالباً - إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ومعظمه إشارات لموضع العبرة فيها أما جسم القصة كلها فلا يكرر إلا نادراً، ولمناسبات خاصة في السياق اقتضاها الموقف الذي نزلت فيه وهذا ما يؤكد علماء التفسير عند ذكرهم أسباب النزول لكل قصة علي حدة وإن كانت جميعها متداخلة أو تمثل مرحلة واحدة.. وأن الإنسان حين يقرأ هذه الحلقات المكررة من القصة الواحدة ملاحظاً السياق الذي وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً في اختيار الحلقة التي تعرض هنا أو هناك، وفي طريقة عرضها كذلك، علي أن هناك ما يشبه أن يكون نظاماً بحسب ترتيب نزولها - فمعظم القصص يبدأ بإشارات

مقتضبة ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً، ثم تعرض حلقات كبيرة تكون في مجموعها جسم القصة - وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكثيرة عند المناسبات - حتى إذا استوفت القصة حلقاتها عادت هذه الإشارات هي كل ما يُعرض منها<sup>(٣)</sup>

وفيما عدا التحليل النادر الذي يكرر بلفظه لهدف مقصود، نجد أن الظاهرة الحقيقية ليست هي " التكرار " وإنما هي التوزيع، ولتتبع ذلك في بعض قصص القرآن:

١ - لنتأمل معاً قصة " موسى عليه السلام " في معارضها المختلفة استيضاحاً عند التزام البيان القرآني لمنهجه، وتقديرًا لتلك الخصيصة الفنية في القصص القرآني نلاحظ:

(أ) إن المواطن القرآنية التي ذكرت فيها قصة موسى - لا موسى فحسب - تبلغ إحدى عشرة سورة وهي: ( البقرة - المائدة - الأعراف - يونس - الكهف - طه - الشعراء - النمل - القصص - غافر - النازعات ) منها سورتان مدنيتان هما ( البقرة والمائدة )..

ويلاحظ أن ما جاء في البقرة إنما هو في ثنايا قصة بني إسرائيل الممتدة عبر تاريخ طويل مع موسى وغير موسى، فذكر طرف من قصة موسى معهم في سورة البقرة جاء عرضاً في أثناء تذكير الله إياهم بما كان منه من إكرام لهم، وما كان منهم من عناد وصد عن دين الله، وكفران بأنعم الله سبحانه: " وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ " ( البقرة: ٥٠ )

وقد وردت تفصيلات هذه النجاة في السور المكيّة التي نزلت من قبل أما هنا فهي مجرد التذكير لقوم يعرفون القصة . سواء من القرآن المكي، أو من كتبهم وأفاصيصهم المحفوظة . إنما يذكرهم بها في صورة مشهد، ليستعيدوا تصورها، ويتأثروا بهذا التصور، وكأنهم هم الذين كانوا ينظرون إلى فرق البحر، ونجاة بني

إسرائيل بقيادة موسى - عليه السلام - علي مشهد منهم ومرأى، وخاصة الاستحياء هذه من أبرز خصائص التعبير القرآني العجيب (١٠).

(ب) إن السور التي تعرضت لقصة موسى منها عشرين مشهداً هي:

١- ما أحاط بولادة موسى من أحداث ودفعت فرعون إلى تقثيل من يولد ذكراً لبني إسرائيل.

٢- خوف الأم علي وليدها وما أوحى به الله إليها

٣- وقوع موسى في يد فرعون وموقف امرأته منه.

٤- إشفاق أمه عليه وبحثها عنه.

٥- إعادته إليها لترضعه بعد أن يمتنع عن المرضعات.

٦- بلوغه مرحلة الشباب وما كان منه في تلك الفترة، من معاونة

الإسرائيلي علي قتل المصري، ثم فراره حين علم بائسار القوم به.

٧- اتجاهه إلى مدين، والتقاؤه شيخ مدين، وتزوجه إحدى ابنتيه.

٨- عودته إلى مصر بأهله وما وقع في رحلة العودة.

٩- تكليفه بالرسالة، وتخوفه من لقاء فرعون، وطلبه من الله أن يعينه

بهارون أخيه.

١٠- مواجهة موسى لفرعون

١١- إيمان السحرة.

١٢- خروج موسى ببني إسرائيل من مصر، وتعقب فرعون لهم.

١٣- مطالبة بني إسرائيل موسى أن يجعل لهم صنماً.

١٤- دعوتهم إلى دخول الأرض المقدسة.

١٥- معاقبتهم بالتيه.

١٦- خروج موسى لميقات ربه مستخلفاً هارون في قومه.

١٧- لقاء موسى بربه وعودته.

١٨ - غضب موسى لاختاذ بني إسرائيل العجل.

١٩ - طلبهم رؤية الله جهرة .

٢٠ - استسقاء موسى لقومه.

هذه هي قصة موسى مع بني إسرائيل من مبدئها إلى منتهاها، وهي لم تأت كاملة في موضع واحد من القرآن الكريم، بل اشتملتها إحدى عشرة سورة واختصت كل سورة بعدة مشاهد منها - علي حسب ما يقتضيه السياق - بحيث تبدو في تفردا قصة مستقلة متكاملة البنيان واضحة الحدود.

فإذا أخذنا كل حلقة من تلكم الحلقات، ونسقناها مع غيرها، رأينا القصة الشاملة لحياة موسى كلها مع بني إسرائيل، متكاملة البنيان، متلاحمة النسيج، تربطها الوحدة بمختلف مظاهرها - علي الرغم من توزعها هذا التوزع - سواء وحدة الموضوع، أو وحدة السياق التعبيري، أو وحدة الجو النفسي .... دون أن نري فيها تكراراً، أو تحتاج إلى توضيح أو تبين، وهذا إحكام وقدرة لا طوق لمخلوق علي السير في طريقها<sup>(١٥)</sup>.

وسنكتفي فيما يلي بعرض المشاهد السبعة الأولى (من الولادة إلى البعث) وسنجد أنها قدمت في سورتين في معارض مختلفة، وبتفاوت فيما بين كل موضع هما سورة ( طه ) وسورة ( القصص ).

أما لقطات ( القصص ) فيبرزها قوله تعالي:

١ - " إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ "

٢ - " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ "

٣- " فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ هُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ".

٤- " وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لِتُبَدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ".

٥- " وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ".

٦- " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ آمَتُوا بِكَ لِيُقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ".

٧- " وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصِدِرَ الرَّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَىٰ

الظِّلَّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْثِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ" (سورة القصص: الآيات من ٤-٢٨).

ولقطات (طه) يبرزها قوله تعالى:

١، ٢: " وَلَقَدْ مَنَّاَ عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ .

٣: " فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي " .

٤: " إِذْ تَمْثِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ " .

٥: " فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ " .

٦: " وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا " .

٧: " فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ " (سورة طه: الآيات من ٣٧-٤٠).

واضح من هذه النظرة ما بين الحلقتين من اختلاف بين، يقرره السياق: فالمشاهد في سورة القصص، بناء قصصي مقصود ليرى بنو إسرائيل منها فضل الله عليهم، ويرى فيها غير بني إسرائيل أنموذجاً بشرياً يحركه الصراع بين الحق والباطل ولكن الله يتدخل المرة بعد الأخرى ليوجه الصراع في الواجهة التي تحقق النصر في النهاية للحق وأعدائه..

أما في سورة " طه " فالمشاهد لا تعدو أن تكون إشارات سريعة تلفت نظر

موسي إلى وقوف الله بجانبه فيما سبق، مما يؤكد له أنه سبحانه سوف يكون بجانبه في كل خطوة تالية مهما بدا فيها من صعوبات ومشتقات، ولذلك فإن هذه المشاهد إنما جاءت بعد أن كلف موسي بتبليغ فرعون ما أرسل به إليه، فأبدى موسي عليه السلام تحوّفه من فرعون، وطلب من الله أن يشدّ أزره بهارون أخيه، فاستجاب له الله ممتناً عليه بفيض نعمه المتوالي، مشيراً بذلك إلى ما يستوجه من تضحيات، في سبيل الله المنعم الكبير<sup>(٢١١)</sup>.

فهني كما نرى - ليست تكراراً للقصة، ولكنها عدة إشارات اعترضت قصة موسي في سورة " طه " لما ذكرت من أسباب - ثم هي - كما نرى - حديث خاص إلى موسي عليه السلام يذكره بقدرة الله التي لا تتناهي ولا تحد . ومن ثم كانت تلكم اللقطات مجملة إجمالاً عجيباً . بحيث لا يكاد الإنسان يحسّ بأن هناك فاصلاً اعترض مسار الأحداث الطبيعي، وبحيث لا تسير المشاهد في طريق قلق، وإن كان هو المسار الطبيعي، فلو زادت هذه اللقطات بعض التفصيل لانقطع الخيط الذي يربط القارئ بالقصة الأصلية، ولو أجملت اللقطات أكثر من ذلك - وهو غير ممكن البتة - أو حذفت وسارت القصة في طريقها من غير اعتراض لأصبحت القصة قلقة، ولأصبح بناؤها مهلهلاً<sup>(٢١٢)</sup>.

لا شك أن توزيع القصة الواحدة في عدة سور يؤدي إلى اختلاف عوامل التأثير في النفس الإنسانية، وذلك لتجدد الأسلوب في الأداء تجدداً يمدّ المشاعر بنشاط لا يفتر. فهذا عرض جديد لقصة " نوح " في سورة ( القمر )، وقد سيقت لإنذار المُعْرِضِينَ عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم - بما أصاب قوم " نوح " أول المكذبين برسالات السماء - من نكال وعذاب . وهي في هذه السورة الحلقة الأولى من خمس حلقات جسّمت كلها مصارع قوم نوح وعاد وثمود ولوط وفرعون في جو مفزع رهيب:

" كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْثُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتْحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَمَى الْمَاءُ

عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُوسِرٍ تَنجِرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرًا وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَكِّيرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ " (القمر: ٩-١٦).

وأخص ما يمتاز به أسلوب العرض هنا: الإيجاز البليغ، والإيقاع الموسيقي السريع، ولا شك أن للرنين الصوتي أثره القوي في تصوير الحادثة، شأن القصص الذي نزل في الفترة الأولى للدعوة . فقد كان يعتمد على الإيجاز والموسيقا اللفظية الأخاذة، وإبراز الحوادث لزلزلة المشركين من موقف العناد.

وقد ذكر الله قصة نوح وما كان من قومه في عشر سور، وهذا التوزيع مقصود في القرآن، لأنه ليس الغرض من عرض القصة القرآنية تعليم التاريخ منها، بل بناء الأفكار والمشاعر عليها في شتى المناسبات، وبمختلف الأساليب .

" ولا شك أن ذكر جانب من القصة في سورة لم يذكر في سورة أخرى أثناء عرضها لتلك القصة نفسها، هو من سمات المنهج القرآني في القصة باقتصارها على موطن القصة منها، واختلاف المناسبات التي تعرض فيها بإعادة ذكرها أو ذكر حلقة منها بأسلوب يلائم تلك المناسبة . وهو ميدان فسيح للتصوير الفني والقيم التعبيرية، وتفنن القرآن في المعاني باختلاف طرق أدائها وأساليب عرضها هو من آيات إعجازه البياني " (٣٨).

وتوزيع القصة الواحدة في القرآن الكريم في عدة سور هو من آثار خضوعها للغرض الديني، حيث تعرض بالقدر الذي يكفي لأداء هذا الغرض، ومن الحلقة التي تتفق معه، فمرة تعرض القصة من أولها، ومرة من وسطها، ومرة من آخرها، وتارة تعرض كاملة، وتارة يكتفي ببعض حلقاتها، وتارة تتوسط بين هذا وذاك، حسبما تكون العبرة في هذا الجزء أو ذاك، على النحو التالي:

أ- نجد قصصاً تعرض منذ الحلقة الأولى: حلقة ميلاد بطلها، لأن في مولده عظة بارزة وذلك مثل: قصة آدم (منذ خلقه) وفيها مظهر لقدرة الله، وكمال علمه، ونعمته على آدم وبنيه .. ومثل مولد " عيسى ابن مريم ": وهو يعرض بتفصيل كامل، ذلك أن مولده هو الآية الكبرى في حياته، وحول هذا المولد قام الجدل كله،

وعنه تفرعت كل قضايا المسيحية قبل الإسلام وبعده... وقصة " مريم " فقد نذرت لله وهي في بطن أمها، وتولي كفالتها زكريا، ثم رزقت منذ مولدها رزقاً حسناً من عند الله، فكانت " كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ " (آل عمران: ٣٧)... ثم تطوي حلقاتها حتى تأتي حلقة ميلاد عيسي، وهي الحلقة المهمة الثانية في حياتها، وقصة " موسى " لأن مولده في عهد اضطهاد بني إسرائيل، وتذبيح الذكور من أطفالهم، ونجاته هو من ذلك مع وجوده بين آل فرعون أنفسهم... قيمة خاصة في بيان رعاية الله له، وإعداده إعداداً خاصاً للمهمة التي سينهض بها، ثم تعرض من حياته حلقاتها ذات المغزي.. و " إسماعيل " و " إسحاق " تعرض حلقة مولدهما، لأن في هذا المولد عبرة. فأولهما رزقه إبراهيم علي الكبر، وأسكنه - علي الرغم منه - بجوار البيت المحرم، والثاني بُشِّرَ به وامرأته عجوز. وقد بلغ من الكبر عتياً - وكذلك يذكر مولد يحيى لزكريا بعد أن وهن منه العظم واشتعل الرأس شيباً<sup>(١١)</sup>

ب- ونجد قصصاً أخرى تعرض من حلقة متأخرة نسبياً: إبراهيم تبدأ قصته فتي ينظر في السماء فيرى نجماً، فيظنه إلهه، فإذا أفل قال لا أحب الآفلين. ثم ينظر مرة أخرى فيرى القمر، فيظنه ربه، ولكنه يأفل كذلك، فيتركه ويمضي. ثم ينظر إلى الشمس فيعجبه كبرها، ويظنها - ولا شك - إلهاً، ولكنها تخلف ظنه هي الأخرى، فيفيء إلى ربه الذي لا يرى.. ويدعو أباه وقومه إلى هذا الإله الواحد فلا يجيبونه، فيحطم أصنامهم في غفلة منهم حيث يقولون: " قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدُكُرُّهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ " (الأنبياء: ٦٠)، ويهمون بإحراقه فينجيه الله منهم: " قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ " (الأنبياء: ٦٩).

ج- ثم نجد قصصاً لا تعرض إلا في حلقة متأخرة جداً: فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وكثيرون غيرهم، لا تعرض قصصهم إلا عند حلقة الرسالة وهي الحلقة الوحيدة التي تعرض من حياتهم، لأنها أهم حلقة منها، والعبرة كامنة فيها<sup>(١٢)</sup>.

- وتوزيع القصة الواحدة في عدة سور من القرآن الكريم كان من دوافعه التناسق المعنوي والنفسي بين القصص التي يعرضها القرآن والسياق الذي يعرضها فيه، وانسجام عرضها في هذا السياق مع الغرض الديني والمظهر الفني سواء بسواء<sup>(٣١)</sup>.

- فالله سبحانه وتعالى ذكر قصة قوم نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسي في سورة ( الأعراف، وهود، والشعراء ) ولم يذكر معهم قصة إبراهيم، وإنما ذكرها في سورة ( الأنبياء، ومريم، والعنكبوت، والصفات ).

والسرّ في ذلك أن تلك السور الأولى ذكر الله فيها نصر رسله بإهلاك قومهم، ونجاة الرسل وأتباعهم. وهذه السور لم يقتصر فيها علي ذكر من أهلك من الأمم، بل كان المقصود ذكر الأنبياء، وإن لم يذكر قومهم، ولهذا سميت سورة الأنبياء، فذكر فيها إكرامه للأنبياء، وبدأ فيها بقصة إبراهيم، إذ كان المقصود ذكر كرامته الأنبياء قبل " محمد "، و " إبراهيم " أكرمهم الله، وهو خير البرية، وهو أب أكثرهم، وليس هو أب نوح ولوط، ولكن لوط من أتباعه، وأيوب من ذريته، بدليل قوله تعالى في سورة الأنعام: " وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ " ( الأنعام: ٨٤ ).

وأما سورة ( العنكبوت )، فأنه سبحانه وتعالى ذكر فيها امتحانه للمؤمنين، ونصره لهم، وحاجتهم إلى الجهاد، وذكر فيها حُسن العاقبة لمن صبر، وعاقبة مَنْ كَذَّب الرسل، فذكر قصة إبراهيم، لأنها من النمط الأول.

وكذلك في سورة الصفات قال فيها: " وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ " ( الصفات: ٧٣، ٧٢، ٧١ )، وهذا يقتضي أنها عاقبة رديئة، إما بكونهم غلبوا وذلوا، وإما بكونهم أهلكوا ولهذا ذكر قصة " إلياس " دون غيرها، ولم يذكر إهلاك قومه، بل قال " فَكَذَّبُوهُ فَأَتَاهُمُ لُحُضْرُونَ " ( سورة الصفات: ١٢٧ ). وقد روي الله رفع " إلياس "، وهذا يقتضي عذابهم في الآخرة، فإن " إلياس " لم يقيم بينهم، و " إلياس " المعروف بعد " موسي " من بني إسرائيل، وبعد " موسي " لم يهلك المكذبين بعذاب الاستئصال، وبعد "

نوح " لم يهلك جميع النوع، وقد بعث الله في كل أمة نذيراً، والله سبحانه لم يذكر عن قوم إبراهيم أنهم أهلكوا، كما ذكر ذلك عن غيرهم، بل ذكر أنهم ألقوه في النار، فجعلها برداً وسلاماً، وفي هذا ظهور برهانه وآياته، حيث أذهم ونصره، " فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ " (الصفات: ٩٨) . وهذا من جنس المجاهد الذي يعرض عدوه، والقصاص الأول من جنس المجاهد الذي قتل عدوه، وإبراهيم بعد هذا لم يقم بينهم بل هاجر وتركهم، وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين أظهرهم حتى هلكوا، ولم يوجد في حق " إبراهيم " سبب الهلاك، وهو إقامته فيهم، وانتظار العذاب النازل، وهكذا " محمد صلي الله عليه وسلم - مع قومه، لم يقم فيهم، بل خرج عنهم حتى أظهره الله عليهم بعد ذلك، و " محمد " وإبراهيم " أفضل الرسل، فإنهم إذا علموا حصل المقصود، وقد يتوب منهم من تاب، كما جري لقوم " يونس "، فهذا التناسق الفني والموضوعي - والله أعلم - هو السر في أنه سبحانه لم يذكر قصة (إبراهيم) مع هؤلاء، لأنها ليست من جنس واقعتهم (٣٣).

فإن قيل: فما وجه الخصوصية بمحمد وإبراهيم بذلك ؟

فالجواب: أما حالة " إبراهيم " فكانت إلى الرحمة أميل، فلم يسع في هلاك قومه لا بالدعاء ولا بالمقام ودوام إقامة الحجّة عليهم، وقد قال الله تعالى: " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ " (إبراهيم: ١٣-١٤)، وكان كل قوم يطلبون هلاك نبيهم فعوقبوا، وقوم إبراهيم وإن أوصلوه إلى العذاب، لكن جعله الله عليه برداً وسلاماً، ولم يفعلوا بعد ذلك ما يستحقون به العذاب ؛ إذ الدنيا ليست دار الجزاء العام، وإنما فيها من الجزاء ما تحصل به الحكمة والمصلحة، كما في العقوبات الشرعية، فمن أرادوا عداوة أحد من أتباع الأنبياء ليهلكوه فعصمه الله، وجعل صورة الهلاك نعمة في حقه، ولم يهلك أعداءه بل أخزاهم ونصره، فهو أشبه بإبراهيم عليه السلام، إذ عصمه الله من كيدهم وأظهره حتى صارت الحرب بينهم وبينه سجالاتاً، ثم كانت له العاقبة فهو

أشبه بحال محمد - صلي الله عليه وسلم، فإن محمداً سيد الجميع، وهو خليل الله، كما أن إبراهيم عليه السلام خليله، والخليلان هما أفضل الجميع وفي طريقهما من الرأفة والرحمة ما ليس في طريق غيرهما<sup>(٣٣)</sup>.

ومن دوافع توزيع القصة الواحدة في القرآن الكريم، بيان ما ليس بيّناً في نفسه: ومنه قوله تعالى:

أ- في قصة لوط: " فَأَسْرِبَ أَهْلِكَ بِقِطْعِ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَمِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ " (الحجر: ٦٥)، فلم يستثن امرأته في هذا الموضوع، وهي مستثناة في المعنى بقوله في الآية الأخرى:

" فَأَسْرِبَ أَهْلِكَ بِقِطْعِ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَمِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ " (هود: ٨١)، فأظهر الاستثناء في هذه الآية .

ب- في قصة ضيف إبراهيم: " إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ " (الحجر: ٥٢)، اختصر جوابه لبيانه في موضع آخر: " إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ " (الذاريات: ٢٥) .

ج- في قصة " صالح " مع ثمود: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ " (النمل: ٤٥)، تفسير هذا الاختصاص ما قال في سورة أخرى: " قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ " (الاعراف: ٧٥) .

د- وقوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: " أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ " (القمر: ١٠) بين في موضع آخر: " وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا " (الأنبياء: ٧٧) .

هـ - وقوله حكاية عن فرعون لعنه الله: " وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ " (سورة غافر من آية ٢٩) . فرد عليه في قوله: " وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ " (هود: ٩٧)

و- وقوله: " وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ " (البقرة: ٨٨) أي أوعية للعلم، فقليل لهم: " وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا " (الإسراء: ٨٥) .

ز- وجعل بعضهم من هذا قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: " قَالَ رَبِّ ارْنِي بِحُجْرَتِكَ فَأَبْرَأُكَ مِنَ الْبَاقِينَ " (الأعراف: ١٤٣). قال فإن آية البقرة وهي قوله: " حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً " (البقرة: ٥٥)، تدل على أن قوله، ولم يثبت في التوراة أنه سأل الرؤية إلا وقت حضور قومه معه، وسؤالهم ذلك<sup>(٣١)</sup>.

ومن هذا العرض يتقرر أن القصص القرآني له سماته التي تميزه وله خصائصه الفنية التي ترقى به عن تناول المخلوقين، وأنه لم يلابسه شيء من الخيال القصصي، ولم يدخل عليه شيء غير الواقع، إذ هو ليس عملاً فنياً مستقلاً، في موضوعه، وطريقة عرضه، وإدارة أحداثه، كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني مجرد. إنما هو - إلى جوار كونه عملاً فنياً - خاضع في موضوعه، وفي طريقة صوغه، وإدارة حوادثه لمقتضي الأغراض الدينية، ومع ذلك فإنه ليستعمل - مع قيامه على الحقائق المطلقة من ألوان الإثارة والتشويق ما لم يشتمل عليه غيره من القصص.

وبتعبير آخر نقدر أن القصة القرآنية تخاطب العقل بأصدق منطق وأوضحه وهي في الوقت ذاته تخاطب الوجدان والمشاعر بأقرب حديث إليها وأحبه - كما هو الشأن في سائر التعبيرات القرآنية - إذ يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير في الوجدان، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية، والوجدان الذي يدرك الجمال الفني الرفيع ويتأثر به يصبح وجداناً حسن الاستعداد لاستقبال المؤثرات الدينية والتأثر بها.

" ومن ثم كانت الوحدة في القصة القرآنية علي غير ما عهد المخلوقون من أدباء ونقاد، فهي وحدة في الموضوع، ووحدة في الجوار، ووحدة في النسق، ووحدة في المنهج التأثيري، ووحدة في المسار القرآني علي عمومته، فالقصة في سور القرآن جزء منها متلاحم أتم التلاحم لا نحس تبايناً، ولا نجد افتراقاً، فالقصة في السورة مثل الآية فيها، تمثل اللبنة في البنية المحكمة القوية " (٣٢).

## بد القصة الكاملة في القرآن الكريم:

هناك قصص وردت في حلقة كاملة في موضع واحد في القرآن الكريم، ولم يتم توزيعها في حلقات علي سور القرآن الكريم مثل بقية قصصه، كقصة " البقرة التي أمر بنو إسرائيل بذبحها في " سورة البقرة "، وقصة أصحاب القرية في سورة " يس، وقصة نبأ الخضم إذ تسوروا المحراب في سورة " ص "، وقصة " موسي والخضّر، وكذلك قصة أصحاب الكهف " وصاحب الجنتين، وذي القرنين وغيرها، لكن الأمر يختلف في قصة يوسف للأسباب الآتية:

أولاً: انفردت قصة يوسف بسورة كاملة من طوال السور، سميت باسم " يوسف " الذي تدور حوله معظم أحداث القصة ... وهذا ما لم يكن لأية قصة أخرى من قصص الأنبياء غير نوح عليه السلام، الذي سميت باسمه سورة من قصار السور، هي سورة نوح، علي حين أن بعض الأنبياء قد سُميت بعض السور باسمهم كسورة هود وسورة إبراهيم، ولكنها لم تكن خالصة للحديث عنهم، بل شاركهم في ذلك غيرهم من الأنبياء<sup>(٣٦)</sup>.

ثانياً: جاءت قصة يوسف في معرض واحد في القرآن الكريم، وفي ثمان وتسعين آية، ابتداء من الآية الرابعة من السورة إلى الآية الواحدة بعد المائة .. وهذه ظاهرة لم تكن في قصة نبي من الأنبياء، حيث تتعدد المعارض، وتوزع المشاهد في كل قصة، فالقصص القرآني - غير قصة يوسف - يرد حلقات، تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وجوها . وحتى القصص الذي ورد كاملاً في سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب ورد مختصراً مجملاً. أما قصة يوسف فوردت بتامها وبطولها في سورة واحدة، وهو طابع متفرد في السور القرآنية جميعاً..

هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة، ويؤديها أداء كاملاً ... ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف، وتنتهي بتأويلها، بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات في سورة وتكون بقيتها في سورة<sup>(٣٧)</sup>.

وقد علّل " الزركشي " ذلك بوجوه منها:

أ- ما فيها من تشييب النسوة به، وتضمّن الإخبار عن حال امرأة ونسوة افتتن بأبدع الناس جمالاً، وأرفعهم مثلاً، فناسب عدم تكرارها لما فيها من الإغضاء والستر عن ذلك، وقد صحّح الحاكم في مستدركه حديثاً مرفوعاً: النهي عن تعليم النساء سورة يوسف.

ب- إنها اختصت بحصول الفرج بعد الشدة، بخلاف غيرها من القصص، فإن ما لها إلى الوبال، كقصة إبليس، وقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وغيرهم، فلما اختصت هذه القصة في سائر القصص: بذلك اتفقت الدواعي علي نقلها لخروجها عن سمت القصص.

ج- إشارة إلى عجز العرب، كأن النبي صلي الله عليه وسلم قال لهم: إن كان من تلقاء نفسي تصديره علي الفصاحة، فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في قصص سائر الأنبياء " (٣٨).

أما " الأوسي " فيقول: " إن قصص الأنبياء إنما كررت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم، والحاجة داعية إلى ذلك مع كل موقف يتحدث فيه القرآن عن تكذيب الكفار للرسول - صلي الله عليه وسلم -، فلما ساق موقفاً من مواقف التكذيب ساق في أثره قصة منذرة بحلول العذاب لما حلّ بالمكذبين، وقصة يوسف عليه السلام لم يقصد منها ذلك، وبهذا أيضاً يكون الجواب عن عدم تكرير قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين، وقصة موسى مع الخضر، وقصة الذبيح ".

" وقد اعترض بأن قصة آدم عليه السلام كررت مع أنه ليس المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم: وأجيب بأنها وإن لم يكن المقصود بها إفادة ما ذكر إلا أن فيها من الزجر عن المعصية ما يجعلها أشبه ما تكون بتلك القصص التي كررت لذلك " (٣٩).

ثالثاً: إذا كان للمرأة مكان بارز في قصة يوسف، وإذا كان دور المرأة في تلك القصة هو الدور الذي يشتهي الرجل منها، ويشوقه الحديث الذي يعرض لوسائل

كيدها، وأساليب إغرائها، وشباك مغامراتها - فإن دورها في القصة لم يكن مستجلباً ليملاً فراغاً فيها.. أو ليلطف من جوّ المأساة التي ضمّت عليها، أو ليجدد نشاط المتلقي لها... وإنما كان حدثاً جارياً مع اتجاه أحداثها، في الصراع بين الخير والشر، فيما بين الناس عامة، وفيما بين الإنسان ونفسه خاصة... وصدق القرآن في نقله للأحداث، وبلاغته في عرضها، هو الذي يعطي القصة القرآنية هذا الجلال، وتلك الروعة التي يستشعر المرء معها ما يستشعر العابد في محراب صلواته ضراعة وخشوعاً، وأن جلال الحق يرتفع بمشاعر الإنسان، ويسمو بمدركاته إلى حيث يعطي الإنسان من ذات نفسه للحق كل ما في وسعه من إيمان به وولاء له..

فالمرأة في القصص القرآني لا تستجلب لغاية غير العبرة والعظة ولا تأخذ مكاناً في القصة إلا حيث تكون درساً مستفاداً في الدعوة إلى الخير والعدل، والإحسان، وفي التنفير من الشر والبغي والعدوان<sup>(٢١٦)</sup>.

والذي نجده في قصة يوسف من روعة البيان وجلال العرض، ومن سموّ بالعاطفة، واستعلاء بالنفس علي الشهوات، وقيادتها إلى موقع الخير علي طريق مفروش بالأشواك، محفوف بالمكاره - نجده كذلك في قصة أصحاب الكهف، أو قصة موسى والعبد الصالح مثلاً، وفي كلتا القصتين لا يبدو وجه المرأة ولا يشار إليها من قريب أو بعيد..

رابعاً: في هذه القصة، كما هو الشأن في معظم القصص القرآني يتجلى سلطان "القدر" حيث تجري الأحداث في مجري يري الناس منه ما يكرهون أو يحبون، حسب ما يحسبون ويقدرّون، ثم تجيء الخاتمة علي غير ما حسبوا وقدرّوا، إذ الذي حسبه خيراً هو شر، وإذا الذي ظنّه شراً هو خير، مصداقاً لقوله تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" (البقرة: ٢١٦).

خامساً: تتحرك الأحداث في قصة يوسف حركة مسايرة لحركة الزمن، حيث ينمو الحدث نمواً طبيعياً مع سير الأيام والليالي، كما ينمو الكائن الحي ويتطور مع

مسيرة الزمن... فالصغير يكبر والكبير يشيخ ويهرم، والعواطف الشابة الحارة  
الثائرة تبرد وتهدأ.. وهكذا تظهر بصمات الزمن على وجوه الناس، وعقولهم  
وقلوبهم، كلما خطا بهم الزمن خطوة إلى الأمام.. فالزمن عنصر له مكانه، وله وزنه  
وحسابه في تلك القصة<sup>(١١)</sup>.

سادساً: إن قصة يوسف هي القصة القرآنية التي جاء في صدرها قول الله تعالى:  
"نحن نقص عليك أحسن القصص"، ولذلك نجد من يستند على هذه المقدمة  
ويقول: "إن قصة يوسف - من حيث البناء القصصي - هي أجود قصة في القرآن،  
ولعله من أجل هذا عدها القرآن من أحسن القصص حين قال: "نحن نقص عليك  
أحسن القصص...."<sup>(١٢)</sup>.

وهذا القول معناه أن غير قصة القرآن أقل جودة وأضعف فناً، وهو نقد وحكم  
علي القصص لا يتفق مع إعجازه وتحديه، لأن القرآن حين تحدّى العرب أن يأتوا  
بمثله لم يقف من مسائل التحدي عند حدود غير القصص، لقد تحدى بالقرآن كله  
قصصاً وغير قصص، فقد أبطل هذا القول ذلك النقد حتماً، وإلا لجاأ أحد كتاب  
القصص المحدثين المجيدين وعمد إلى قصة قرآنية غير قصة يوسف وجعلها أكثر  
فنية حسب المصطلح عليه بين المحدثين، من كتاب القصة ويكون بذلك قد كسر  
التحدّي بالقصص القرآني الذي أنزل للبشرية في كل عصر، فإعجازه وتحديه لا  
يقتصر على العرب، ولكنه يمتد إلى البشرية في كل العصور.

"والخطأ ومنشؤه كامن في الحكم على القرآن بمعيار اصطلاحي لجودة القصص  
يشترط وحدة الموضوع وإحكام التصميم وجودة الحبكة والانتفاع بالحوادث  
الاستطراذية، والقرآن هو المرجع، وهو الحكم في كل ما تعرض له القرآن قصصاً أو  
غير قصص، فناً أو غير فن"<sup>(١٣)</sup>.

سابعاً: إن قصة يوسف تمثل الأنموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني  
للقصة، بقدر ما تمثل الأنموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقدي  
والتربوي والحركي أيضاً.. ومع أن المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه، إلا

أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء<sup>(١٠١)</sup>:

#### أ- أشخاص القصة:

أشخاص القصة هنا - علي طولها - يكادون لا يتجاوزون بيت يعقوب إلا بالقدر الذي تطوّرت به الأحداث حين أصبح بطل القصة بعيداً عن أهله، ومع ذلك نلاحظ أن الأشخاص يقدّمون علي حسب الحاجة إليهم في القصة، فليسوا جميعاً علي مستوى واحد، فالمنهج في تقديم الأشخاص إن هو إلا منهج قرآني خاص به، يشفّ عن جانب من الإعجاز البياني، حيث يلتزم بتقديم الشخصية في الحدود التي يحتاجها دورها في القصة، وفي الوقت الذي تطلبها فيه، دون تقصير أو إطالة وتزويد<sup>(١٠٢)</sup>.

إن القصة تعرض شخصية يوسف - عليه السلام - وهي الشخصية الرئيسة في القصة - عرضاً كاملاً في كل مجالات حياتها، بكل جوانب هذه الحياة، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات، وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسة في القصة، وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها.. ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء.. وابتلاءات الفتنة بالشهوة، والفتنة بالسلطان، وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتي المواقف وشتي الشخصيات.. ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقياً خالصاً متجرداً في وقفته الأخيرة، متجهاً إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع:

" رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ " (يوسف: ١٠١)

وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسة في القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز، وفي مساحات متناسبة من رقعة العرض، وعلي أبعاد

متفاوتة من مركز الرؤية، وفي أوضاع خاصة من الأضواء والظلال.. وتتعامل القصة مع النفس البشرية في واقعتها الكاملة، متمثلة في نماذج متنوعة: أنموذج يعقوب الوالد المحب الملهوف والنبى المطمئن الموصول.. وأنموذج أخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة، ومواجهة آثار الجريمة، والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة، متميزاً فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة ومواقفها..

وأنموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأنثوية، كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك، إلى جانب طابعها الشخصي الخاص الواضح في تصرفها وضوح انطباعات البيئة ..

وأنموذج النسوة من طبقة العلية في مصر، والأضواء التي تلقيها علي البيئة، ومنطقها كما يتجلى في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها، وفي إغرائهن كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهن جميعاً وما وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها، كما يتجلى في سجن يوسف بصفة خاصة .. وأنموذج " العزيز " وعليه ظلال طبقتة، وبيئته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه، فتتضح في شخصيته طبيعة سمت الإمارة، ثم ضعف النخوة وغلبة الرياء الاجتماعي وستر الظواهر وإنقاذها، وفيه تتمثل كل خصائص بيئته.. وأنموذج " الملك " في خطفة يتوارى بعدها كما توارى العزيز في منطقة الظلال بعيداً عن منطقة الأضواء في مجال العرض المتناسق .. وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة في هذا الحشد من الشخصيات والبيئات، وهذا الحشد من المواقف والمشاهد، وهذا الحشد من الحركات والمشاعر .. ومع استيفاء القصة لكل ملامح " الواقعية " السليمة المتكاملة وخصائصها في كل شخصية وفي كل موقف وفي كل خالجة .. فإنها تمثل الأنموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، ذلك الأداء الصادق، الرائع بصدقه العميق وواقعيته السليمة .. المنهج الذي لا يهمل خلجة بشرية واقعية واحدة، فقد ألمت القصة بألوان من الضعف البشري، بما فيها لحظة الضعف الجنسي. ودون أن تزور - أي تزوير - في تصوير النفس البشرية بواقعيته

الكاملة في هذه المواقف، ودون أن تغفل أية لمحة حقيقية من لمحات النفس أو الموقف، فإنها لم تسف قط لتنشئ مستقماً مقززاً للفترة السليمة، وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعي الكامل في تنوع الشخصيات وتنوع المواقف<sup>(٤١)</sup>.

### بد أحداث القصة:

والواقعية الصادقة الأمانة النظيفة السليمة في الوقت نفسه، لا تقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع، على هذا المستوي الرائع، ولكنها تتجلى كذلك في واقعية الأحداث والسرود والعرض وصدقها وطبيعتها، في مكانها وزمانها، وفي بيئتها وملابساتها.. فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة تجيء في أوانها، وتجيء في الصورة المتوقعة لها وتجيء في مكانها من مسرح العرض، متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعة جريان الحياة بها..

حتى لحظات الجنس في القصة ومواقفه أخذت مساحتها كاملة - في حدود المنهج النظيف اللائق "بالإنسان" في غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البشرية في شمولها وصدقها وتكاملها - ولكن استيفاء تلك اللحظات لمساحتها المتناسقة مع بقية الأحداث والمواقف لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هي كل واقعية الكائن البشري. وكما لو كانت هي محور حياته كلها<sup>(٤٢)</sup> فلا شك أن هناك مواقف كثيرة كانت بين امرأة العزيز وفتاها، ولكن شيئاً من ذلك لا علاقة له بمسار القصة، ولذلك أسدل عليه الستار، حتى يخيّل للناظر أن موقف المرادة لا غير هو الذي كان... كما أن البيان القرآني يتجاوز الحديث عن تسرب نبأ المرادة من قصر العزيز إلى نساء المدينة. إذ لا يضيف ذلك للقصة جديداً، بل إنه يعترض تحرك القصة في مسارها الطبيعي، فهي أحداث ومواقف استطرادية لا تتعلق بالحدث الرئيس، ولا تضيف إليه ما ينميه ويطوره في السبيل القصصي، فالفتية البيانية ترفض الاشتغال بأي شيء من ذلك في هذه القصة<sup>(٤٣)</sup>.

وعلي العكس من ذلك، فإن كل ما تناولته القصة والأحداث والمواقف يمد

الحدث الرئيس يزداد ينمو به في مساره المخصوص به، فتنشئة الغلام في بيت العزيز تقوي آصرة المرأة به، بما يطمعها فيه، ويغريها به، ويوقعه في محنة تصهر نفسه وتخلصها من أوشابها وأوضارها، حيث يصلّ به تماسكه أمامها إلى السجن وظلماته، وهو صابر على كل ما يعانیه دون أن يستسلم لدواعي الخيانة، تمهيداً لأن يتولّى أخطر منصب في الدولة في أعصب وقت تمرّ به البلاد.. فتماسك يوسف أمام المرادة والإصرار عليها، والتهديد بسببها لا تهدف القصة من ورائه إلى بيان عفة يوسف، فهذا غرض جانبي لا تقوم عليه لذاته، وإنما هي تهدف إلى أن هذا الموقف اليوسفي رشحه لأن يكون على خزائن الأرض، لأنه كما قال للملك - حفيظٌ عليم، وقيامه على خزائن الأرض منحه فرصة الالتقاء بإخوته القادمين للحصول على الزاد.. وهكذا تحرّكت القصة من هذا المنطلق إلى نهايتها.. فتأتي يوسف علي الخيانة ليس خصوصية له؛ إذ جميع الأنبياء والمرسلين صفوة مختارة من بين الناس، يتميزون علي غيرهم باشتغالهم علي صفات الخير جميعها، وتأبيهم علي صفات الشر جميعها، فليس يوسف في ذلك فلتة، لكن البيان القرآني ركز في قصة يوسف علي تلك الصفة لأنها تسلم إلى الأحداث التالية وتنميتها، لتصل إلى تحقيق رؤياه التي رآها في طفولته<sup>(١١)</sup>. فهناك حبكة بين التقدمة للقصة والتعقيب عليها، الذي يواجه تكذيب قريش بالوحي إلى رسول الله - صلي الله عليه وسلم - بتقرير مأخوذ من هذا القصص الذي لم يكن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - حاضراً وقائعه:

" ذَلِكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ " (يوسف: ١٠٢).

وهذا التعقيب يترابط مع التقديم للقصة في الاتجاه ذاته:

" نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْغَافِلِينَ " (يوسف: ٣).

والتقديم والتعقيب علي هذا النحو يؤلفان مؤثراً موحياً من المؤثرات الكثيرة في سياق القصة، لتقرير الحقيقة التي يعرضانها، وتوكيدها، في مواجهة الاعتراض

والتكذيب.. وما يسمى بالعقدة الفنية واضح في القصة، فهي تبدأ بالرؤيا يقصّها يوسف علي أبيه، فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم، وينصحه بالألا يقصّها علي إخوته كي لا يثير حسدهم فيغريهم الشيطان به فيكيدون له ... ثم تسير القصة بعد ذلك، وكأنها هي تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في النهاية أنهي السياق القصة، وبذلك تجيء الخاتمة فتحلّ العقدة حلاً طبيعياً لا تعمل فيه ولا اصطناعاً<sup>(٥٠)</sup>.

وهكذا تتلاحم مواقف القصة ومشاهدها تلاهما عفويّاً طبيعياً، لا قلق فيه، ولا اصطناع، في أحداثها ولا اضطراب في تتابعها، ولا انحراف في مسارها، بحيث لا نعثر في حياة يوسف علي حدث يفيد تلك القصة إلا وجدناه في مكانه منها بالقدر الذي يحتاجه البناء القصصي.

#### ثامناً: الجانب النفسي في القصة:

من المناسب القول إنّ قصة يوسف في القرآن هي قصة الشخصية والأحداث معاً، فهي لا تسجل واقعاً فحسب، ولكنها تنصّر للقيم الإنسانية الجديرة بالخلود، إنها<sup>(٥١)</sup> تنصّر للإيمان، للصبر، للعفاف، للأمانة، للإخلاص ..

وقد أبرزت صراع النفس أملاً في الخطوة، أو إشباعاً لظماً الحبّ، وقام بالأدوار فيها شخصيات متباينة في السنّ، وفي المكانة الاجتماعية . ولكل منها طابعها الخاص وفق التربية والتجارب التي مرت بكل منها: كالبراءة، والحسد، والعلم، والحكمة .

" وهكذا فإن الدارس لهذا القصة في القرآن يستطيع أن يبرز شحنات نفسية من أبطال القصة، ومن بعض كلماتها وإشاراتها، فنحن نلاحظ كلمة الصبر مثلاً، كانت دائماً علي لسان يعقوب، والاستعاذة من الظلم علي لسان يوسف، وتوكيد الإيمان علي لسان إخوته . كما نلاحظ أن في الإمكان وضع عناوين لبعض السلوك الذي فرط من شخصياتها . كالتبرير والإسقاط والكذب والغيرة، والقلق، والإحساس بالذنب، ونحو ذلك من الحيل اللاشعورية التي يلجأ إليها الإنسان في معاملاته النفسية، والتي يسميها علم النفس " آيات عقلية "، يغالب بها المرء إحباطه وقلقه وتوتره الناشئ عن فشله، وهو يحاول تحقيق رغباته "

فإخوة يوسف مثلاً ظلوا ضحايا الكبت الذي عانوه، كي يخفوا رغبتهم في التخلّص من يوسف، حتى يخلو لهم حبّ أبيهم، ولكنهم كانوا يفشلون في إخفائها وكبتها، بل كثيراً ما تبدو فيما يصدر عنهم من مواقف أو كلمات ضد يوسف، مما جعل يعقوب يشك في حسن نيّاتهم عندما دعوا يوسف أن يلعب . فقال لهم:

" وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ " ( يوسف: ١٣ )

وكان من نتيجة هذا الكبت ومعاناته أن انحرفوا بتفكيرهم .. فكل ما كان يهّمهم تحقيقه هو أن يحولوا بين يوسف وأبيه، فاتّفقوا على قتله، وتلطيخ قميصه بالدم، وادّعاء أن الذئب أكله لما ذهبوا يتسابقون وتركوه عند متاعهم . ولكن التلفيق كان واضحاً، لأن القميص لم يكن ممزقاً بأثار أسنان الذئب، مما جعل يعقوب لا يصدقهم . ولهذا كان يدعوهم دائماً إلى أن يتقصّوا آثار أخيهم، ولو أنه صدّقهم في دعواهم لما أصرّ على أن يقتفوا آثاره ..

وقد وقعوا في حالة ( التبرير ) كما يفعل الذئب، إذ يعمد إلى تفسير سلوكه لبيّن نفسه وللناس أن لسلوكه هذا أسباباً معقولة، فهم يقولون: " قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ " ( يوسف: ١٧ ) .

وإذا كان " الإسقاط " هو حيلة يسقط بها المرء نقائصه وعيوبه على الآخرين .. ويهّمه بالدرجة الأولى أن يلصقها بمن يظن أنه ينافسه مباشرة، وإذا كان هذا هو مفهوم الإسقاط في علم النفس، فإن القرآن الكريم روى ذلك عن إخوة يوسف، حينما دس يوسف صاع الملك في متاع أخيه، وألقى القبض عليه بتهمة السرقة ليستبقيه، دون أن يكشف لهم عن شخصيته . إذ تقول الآية الكريمة على لسانهم:

" إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ " ( يوسف: ٧٧ )

ولو استقصينا لوجدنا في السورة آيات أخرى تتحدّث في بساطة عن أدق النظريات لعلم النفس الحديث<sup>(١٠)</sup>.

## تاسعاً: الإعجاز البياني في القصة:

أن المتأمل في بناء القصة يجد أن التلازم بين أحداثها ومواقفها ومحورها، ليس هو مظهر الإحكام والتناسق في البناء القصصي فحسب، بل يجد أن من ذلك - كذلك - التلاؤم بين الأحداث والمواقف وبين العبارات البيانية، فالعبارة القرآنية تؤدي في ذلك المجال دوراً مهماً، بحيث لا تنفصل عبارة واحدة عن موقعها، فهي بمعناها وإيحاءاتها وظلالها كيان حي في جسم القصة النابض:

١ - نلمس ذلك في نداء يوسف أباه في مبتدأ القصة حيث كان غلاماً صغيراً، بقوله: يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً... " وفي خاتمة القصة حيث كان رجلاً مكتملاً مستولاً بقوله: " يا أبت هذا تأويل رؤياي... " فالتاء توحى بتعلق يوسف بأبيه، وما يكتنه له من حبّ وودّ لا يتأثران بمرور الزمان ولا بتغيّر الأحوال، فيوسف عزيز مصر أمام أبيه هو يوسف الطفل الذي يقصّ رؤياه على أبيه. وفارق بين يوسف في ذلك وبين إخوته الذين شابت عاطفتهم نحو أبيهم شوائب المادة فلم يروا فيه سوي أب فقالوا: ... يا أبانا استغفر لنا... " وبذلك فإننا مع يوسف نكاد نري عاطفة البنوة شاخصة محسوسة.

٢ - ونلمس ذلك في الفجوة بين حديث الابن مع أبيه وتأمّر الإخوة التي تحدثها " لقد " في قوله تعالى: " لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين .. " فبالإضافة إلى معناها اللغوي الذي يمنحه التعبير من تحقيق وتأكيد لما يليها من أحداث تهيئ الذهن إلى أن هناك تغيراً في العواطف البشرية وانتقالاً من الحبّ الأبوي الخالص إلى غيرة الإخوة وتحاسدهم الممثلين في تأمرهم علي يوسف، وتومئ إلى أن هناك مشهداً في القصة خطيراً يوشك أن تبدأ أحداثه<sup>(٥)</sup>

٣ - ونلمس ذلك في قوله تعالى: " قال قائل منهم... " فإسناد القول إلى قائل من الإخوة بدلاً من إسناده إلى واحد منهم أو نحو ذلك، يومئ إلى أن هذا القول كان في أثناء نقاش، وأخذ ورد بين الإخوة فيما يصنعونه للتخلص من يوسف، فهو قول مسبوق، بأقوال، صدر من بعض القائلين.

٤- ونلمس ذلك في قوله تعالى على لسان هذا القائل من إخوة يوسف: " ... إن كنتم فاعلين "، فتعليق رأيه على هذا الشرط يوحي بأنه غير موافق على التخلص من يوسف، وإنما هي الاستجابة لرأى الأغلبية، والإذعان عن غير اقتناع ..

٥- ونلمس ذلك في عبارة يوسف: " معاذ الله إن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ... " .. ولم يقل: إلا من سرق، فأتى بالعبارة الدقيقة التي تؤدي الغرض منها معرض الحديث، والتي لا يخرج بها يوسف على الواقع المجهول، وهي براءة أخيه من السرقة، فعبارة " من وجدنا متاعنا عنده " لا تنفي التهمة فتكشف خطة يوسف، ولا تثبتها فيكون متجنباً على برئ ..

٦- ونلمس ذلك في قوله تعالى: " فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه .. " حيث أقحمت ( أن ) بين ( لما )، و ( جاء )، لتضيف إلى المضمون اللغوي إيحاءً بأن هذا الحديث الغريب المعجز كان متوقعا " فلما أن جاء البشير " فكأن هناك من ينتظر هذا المجيء، فلما تحقق ذلك المنتظر ترتب عليه ما ترتب من إلقاء البشير قميص يوسف على وجه أبيه، ويرشح هذا الإيحاء أن يعقوب كان يحسّ في داخله بشيء من ذلك، فهو القائل لبنيه حين فصلت العير: " إني لأجد ريح يوسف " فالتوقع كان موجودا، ولا يناسب ذلك الحال تعبيراً عما حدث بدون ( أن )، كما أن مجيء ( أن ) في الجملة يمدّها بإيحاء آخر يكشف عن طول السفر وبعده ما بين يوسف وأبيه، فزمن المجيء ليس مستمرا ولكنه مقطوع لطوله، فهو مراحل، وكلمة ( أن ) هي التي تعطى هذا الإيحاء ... " فلما أن جاء البشير "، فالجملة بدون ( أن ) لا تحمل هذا الإيحاء، ومن ثم كانت ( أن ) هنا ضرورية لإعطاء المتلقي تصويرا للفعل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف ومجيئه.

وهكذا يتقرّر لدى من يتأمل البيان القرآني أن هناك وحده شاملة تسري في خلال القصة، بحيث لا تنبو فيها عبارة واحدة عن مسار القصة، ولا يشذ فيها موقف واحد عن المقصد منها، وبحيث لا يفتقد التأمل فيها من المؤمنين أسباب الهدى والرحمة .

## عاشرا: ومن لطائف التناسق:

في الأداء القرآني في هذه القصة، تكرر عبارات معينة تؤلف جزءا من جو القصة وشخصيتها الخاصة (١٠) ، ومن نماذج هذه اللطائف:

- ١ - ذكر العلم كثيرا، وما يقابله من الجهل وقلة العلم في مواضع شتى  
- " وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " .  
- " وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " .  
- " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " .  
- فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " .  
- " قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا فِي تَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي " .  
- " قَالُوا أَضْعَافُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ " .  
- " يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ أَفْتِنَا فِي سِنْعِ بَقَرَاتِ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ " .  
- " وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّذِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ " .  
- " ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ " .  
- " قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ " .  
- " وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " .  
- " قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ " .

- " قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ " .

- " فَلَمَّا اسْتِأْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ " ..

- " وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ " .

- " عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " .

- " قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " .

- " قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ " .

- " قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " .

- " رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ " .

وهى ظاهرة بارزة تلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفه في قصة

يوسف<sup>(٢٢)</sup>

٢- ومن لطائف التناسق أن يذكر يوسف الحضيف الكيس اللطيف المدخل،

صفة الله المناسبة ... " اللطيف " .. في الموقف الذي يتجلّى فيه لطف الله في

التصريف:

" وَرَفَعَ أَبُوْنِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " (يوسف: ١٠٠).

وهكذا بدأت قصة يوسف وانتهت في سورة واحدة، وذلك لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء . فهي رؤيا تتحقق رويدا رويدا، ويوما بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة . فلا تتم العبرة بها - كما لا يتم التنسيق الفني فيها - إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها . وإفراد حلقة واحدة منها في

موضع لا يحقّ شيئاً من هذا كله كما يحقّقه أفراد بعض الحلقات في قصص الرسل الآخرين، كحلقة قصة " سليمان " سبأ، أو حلقة قصة مولد " مريم " أو حلقة قصة مولد " عيسى "، أو حلقة قصة " نوح " والطوفان ... إلخ فهذه الحلقات تفي بالغرض منها كاملاً في مواضعها، من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم:

" نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ " ( يوسف: ٣).

- (١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ١، ص ٥٥.
- (٢) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٥.
- (٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، ص ٥٥.
- (٤) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٦.
- (٥) سورة القمر من آية ١٧. وانظر الزركشي: البرهان. ج ٣. ص.
- (٦) في قوله تعالى في سورة طه آية ٢٠ "فألقيها فإذا هي حية تسعى".
- (٧) في قوله تعالى في سورة الأعراف آية ١٠٧: "فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين"
- (٨) انظر: الزركشي، البرهان. ج ٣. ص ٢٦-٢٨.
- (٩) الخطابي: بيان إعجاز القرآن. ص ٥٢.
- (١٠) القاضي عبد الجبار: المغني ص ٤٠٠. تحقيق: أمين الخولي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م.
- (١١) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص ١٩٤.
- (١٢) المرجع السابق، ص ١٩٥.
- (١٣) أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص ١٤٤، طبعة أولى، القاهرة. وهو قول صحيح في الجملة، بيد أنهم اخطأوا وجه الحكمة فيه، فإن اليهود لم يكونوا من الغلظة والجفاء والاستكراه بحيث وصفوهم، فقد كان في اليهود شعراء فصحاء كالسموئيل وكعب الأشرف وغيرهما، وكان لشعر اليهود باب متميز في الرواية بعد الاسلام. والعرب يعدون اليهود منهم وإن كانت الدار واحدة.. والخطاب في القرآن كان يسمعه العرب واليهود جميعاً، فلا هؤلاء ينكرون من أمره ولا أولئك.
- انظر: مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص ١٩٥.
- (١٤) قارن سورة الشعراء: الآيات ٦٧ و١٠٣ و١٢١ و١٣٩ و١٥٨ و١٧٤ و١٩٠.
- (١٥) د. درويش الجندي: النظم القرآني في كشف الزمخشري، ص ٢، طبعة نهضة مصر ١٩٦٩.
- (١٦) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ١١٦.
- (١٧) د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٣٤.
- (١٨) المرجع السابق ك ص ١٩٧.
- (١٩) المرجع السابق: ص ١٩٧.

- (٢٠) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٧٤ .
- (٢١) المرجع السابق، ص ١٧٤ .
- (٢٢) سعد الدين التفتازاني: تهذيب المنطق . ص ١٥٦ - مصر ١٣١٥هـ .
- (٢٣) د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني، ص ٣٠٦ .
- وانظر ايضاً: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٢٨-١٢٩ .
- (٢٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج١ . ص ٧١ .
- (٢٥) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٣٨-١٣٩ .
- (٢٦) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٣٩-١٤١ .
- (٢٧) المرجع السابق، ص ١٤٢ .
- (٢٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٥٠٧ .
- (٢٩) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٣٤-١٣٥ .
- (٣٠) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٣٦ .
- (٣١) المرجع السابق . ص ٧٦ .
- (٣٢) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، المجلد الثالث، ص ٣٠ و ٣١ .
- (٣٣) المرجع السابق: ص ٣٢ .
- (٣٤) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، المجلد الثاني، ص ١٩٤-١٩٥ .
- (٣٥) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٦٢ .
- (٣٦) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٦٤٠ .
- (٣٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ١٩٥١ .
- (٣٨) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٢٩-٣٠ .
- (٣٩) د. فتحي عبد القادر: من بلاغة القرآن الكريم في سورة يوسف عليه السلام. ص ٤٤، ط ١ .  
مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٨٥ .
- (٤٠) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٤٧ .
- (٤١) المرجع السابق: ص ٤٨ .
- (٤٢) د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٣١٤ .
- (٤٣) د. محمد أحمد الغمراوي: الإسلام في عصر العلم، ص ٢٥٣ .
- (٤٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص ١٩٥١ .
- (٤٥) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ٨٤-٨٥ .
- (٤٦) سيد قطب: في ظلال القرآن . ج ٤، ص ١٩٥٢ .
- (٤٧) المرجع السابق . ص ١٩٥٩ .
- (٤٨) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ٩٢ .

- (٤٩) المرجع السابق: ص ٩٣.
- (٥٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ١٩٦٥.
- (٥١) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٥١٤ و ٥١٦.
- (٥٢) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن. ص ٥١٧.
- (٥٣) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ٩٦-٩٨.
- (٥٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ١٩٦٦.
- (٥٥) المرجع السابق، ص ١٩٦٧.